

في زوايا المجتمع ...

أميرة عربية !!!

قصة مصرية : من مذكرات مسروقة ...

للاستاذ عبد الله حبيب

كان الشيخ عبد الحميد ... طالبا في معهد الاسكندرية الديني، وكان نورا بين رفاقه بالتجلة والاحترام، لأنه كان يتفرد - مع أفراد قلائل - بين الطلاب بمظاهر الغنى والجاه . وكان أبوه أشهر تجار النحاس في الوجه البحري ، جم الثراء ، وافر الرخ ، سخي اليد لا يرد سائلا ، ولا يتحرم مالا .

وكان ابنه الشيخ عبد الحميد ... على غراره أريحية وكرما ، وكان حبيبا الى نفوس الطلاب والشيخوخ . يرفل بينهم فيما وجهه الله من نعمة وجاه ، وكان الى ذلك ريان الشباب ، مستوى العود ، جميل الوجه ، ذكي الفؤاد ، متوقد الذهن ، فاجتمع له بهذه الصفات كل ما يحبه الى النفوس ويأخذ بيده الى ما يشتهي من مجد ونجاح .

ثم تعاقبت الأيام ، وكثرت الأعوام ، فاذا الحرب العالمية الاولى يندلع لحيها في الأرجاء ، وإذا الأحكام العرفية تفرض على البلاد ، وإذا والد الشيخ عبد الحميد باقى جوار ربه دون أن يدع لبنه من ثروته الطائلة الا صباية ضائلة لا تثنى بحاجاتهم ولا تحفظ عليهم مكاتبهم بين الأهل والاصدقاء .

وامتدت يد الأحكام العرفية الى الشيخ عبد الحميد كما امتدت الى كثير من المصريين بالنفى والاعتقال ، فكان أحد المنتمين في مالطة ، فظل بها أربعة أعوام . ولما عاد الى مصر من منفاه كان رفاقه في الدرس قد خلفوه وراءهم ونال درجاتهم الية وظفروا بمحظتهم من الوظائف .

وكانت الثورة المصرية قد تنادى بها الزعماء وحل لواحد الطلاب ، فخاض الشيخ عبد الحميد غمارها ، وكان أحد خطبائها الأفاضل . وجنحت به الثورة عن مواصلة الدرس ، وغمره طوفان الوطنية فكان أحد ضحاياها أولا وأخيرا .

وقوت نائرة البلاد ، ونال أكثر المجاهدين نصيبهم من نعيم الحياة ورخاء العيش ، إلا صاحبنا - مع نفر قليل - فقد تلفت حوله فلم يجد له من مقام الوطنية نصيبا .

وحسب المسكين أن معرفة الزعماء له وبعد صوته في الخطابة وذبوع اسمه في الثورة المصرية يكفل له النجاح إذا حو عمل في الصحافة . لكنه منى بالتحية في هذه كما منى بها في تلك . وظل الى اليوم يغالب الأيام وتغالبه ، ويتعلق بالأمال كما تتعلق الدمة الحائرة في جفن الساهد الحزين .

وعرفت الشيخ عبد الحميد في دنياه المدبرة فأنتت به معرفته وارتحت لمجالسته وامتت
بجديته العذب الغياض .

وهو الآن أحد أفراد قلائل من الموا بتاريخ الثورة المصرية وأمرارها وخفاياها ،
ويكاد ينرد في هذا العهد بمعرفة شاملة لتاريخ الأمر المصرية .

قلت له ذات مرة : ألم تكن كتابة مذكرات عن حياتك الحافلة بشتى الوقائع
ولذكريات ؟ فأجاب : لم أدع شاردة ولا واردة من حياتى إلا قيدتها فى حينها ، وإنى
لأرجع إليها الآن فأجد فيها سلوة وعزاء . لقد كانت حياة قصيرة ، ولكنها كانت عريضة
الأفق متعددة الجوانب ذاترة بالأحداث .

قال ذلك — وكنت فى منزله — ثم نهض إلى غرفة أخرى فواد يحمل بعض هذه
المذكرات ، وتناولتها بالقرأة العابرة فرأيت بين أجزاءها طرفا وغرائب جديرة بأن تكون
متاعا للقراء . ووقع بصرى على جانب يمثل حياته الذراوية ، وراقنتى طرافة هذا الجانب من
حياته فسألته : أليس من الخير أن تقوم بنشر هذه المذكرات ؟ فقال : لقد ضننت بها
على النشر حتى أيام كنت أعمل فى الصحافة فكيف بى أبيع نشرها اليوم بعد أن جازيت
ساعة التلم وأويت إلى عزيتى .

ولست أدرى لماذا عولت فى هذه اللحظة على سرفتها . أجل تماكنتى هذه الرغبة ...
فلم أبرح منزله حتى ظفرت بها ...

والآن فسجد الصديق هذا الجانب من حياة قلبه وهواه قصة بين أيدي القراء ، وسيعرف
أنى أنا السارق الذى لم يرع حرمة الأسرار . وفى سبيل التلم وصناعته ماسألنى من غضب
الصديق وعنته .

وتلك هى المذكرات المسروقة ...

(... مارس سنة ...)

ما أجل الربيع فى نحر الاسكندرية وما أروع أصائله وأمسياته على شاطئ البحر ، إننى
أحس فى هذه الأيام كأننى أصبحت عاشقا ، أرجو أن يكون هذا الإحساس وهما من
أوهام الربيع . يقولون إن القلوب تفتح للربيع كما تفتح الورود ، فهل تفتح قلبى
لحب هذه الـ ... هذه الأميرة ، أجل هذه الأميرة العربية التى يفر من سطوة جمادى
سراة النغرو وجوهه ، وماذا يخيفنى من هواها ولست أنى منها ما يبنى المدلون . إننى
أعرف مكانى فى هذه الدنيا ، فاست أحمل نفسى عناء الآمال الكذاب ، سأقنع من هواها
بالنظرة الحافظة ، وستكون هذه النظرات زادا لقلبي ...

(... مارس سنة ...)

اليوم جازني الهوى مقداره في أهله وعرفت أني عاشق
ولا سبيل الى النجاة من هول ماجرتي اليه قلبي ، فانكن مشيئة الحب وايرحم الله المحبين
رباه ؟؟ هذه أميرة عربية فائقة ، وهي — كما حدثتني — وفدت الى مصر من بلادها
الزانية لتشهد معالمها وآثارها ، وما أنذا أراها بعيني تنزل في أعظم فسادق الثغر وتحتل منه
جناحا خاصا ، وتلك آثار الغنى الطائل والذممة الوفيرة تبدو للعيان في كل مظاهرها ، وهذه
ثيابها العربية التي تحرص على لبسها تم عن تمسكها بعبادات قومها ، فكيف توسوس لي بتمسك
بالدنو منها والتعرف اليها ؟

لقد كنت أريد أن أفنع بالنظر اليها بعيدا عن قدس مجلدتها ، فما بالي اليوم أتعلق
بكاذب الامال فيؤزقي هم التفكير في وسيلة أتقرب بها اليها .

ذلك هو جنون الحب ، وتلك هي سماته . أليس من الجنون أن يخفق قلبي بحب هذه
الأميرة التي غزت قلوب العتاة من أبناء الثغر ورواده الأثرياء . ومن أكون بين هؤلاء وهؤلاء
بعد أن ذبل الشباب ، وخلا الوطاب .

رباه !!

هل أنت معمد من ضاقت به الحال فتى تغسرب لا أهل ولا مال

*
*

(... أبريل سنة ...)

اليوم ما أسعدني بهوى ، لقد تجرم شهر كامل لقيت فيه من الوجد والحرم ان ما يذيب
قلب الجناد . أما اليوم فما أسعدني بهوى الاميرة الفاتنة ...

من كان يصدق أن أظفر — أنا الذي يعوزني ثمن قدح من الشاي في بهو الفندق
الكبير الذي تنزله الأميرة — باقتسامها الساحرة . ومن كان ينظن أن أرى بعيني إقبالها على
المائدة القريبة مني وأنصرفها عن بقية الموائد ، وحولها شباب الثغر والصفوة المختارة من
أغنيائه ، لست واحدا في فهم ما فهمت . لقد أقيمت اليوم نحوي وظلت تنفرس في وجوهي
طويلا ، أليس من الجائز أن تكون ثيابي العربية وعمامي الأنيقة سبب إقبالها علي وتطلعها
إلي . ليكن هذا أو سواه ، فقد ظفرت منها بما لم يظفر به أحد .

سأعود الى الفندق غدا ، وسادني من مجلدتها فأحبها وليكن ما يكون .

*
*

(... أبريل سنة ...)

ويلي ، ثم ويلي ، كيف جسرت على ما أقدمت عليه اليوم ؟ ...

هذا الوجه الفاتن الساحر ، وتلك التقاسم العربية الوضاعة ، وهذه الأناقة في ثيابها
البدوية الموشاة الطريفة ، وذلك الجسم الريان المتود . كل هذا أو بعض هذا أما كان
يكنى لأن تتولاني بسببه الرهبة أو يعقد لساني الخوف ؟؟

لقد أقبلت اليوم تهادى نحو مائدتها المختارة في بهو الفندق ، ورنت الى في إيماءة لمساحة خاطفة ، إى والله رنت الى الأميرة التى افتتن بها كل من رآها ، والتى ظفرت أنا وحدى بإعجابها ورضاها ، ما أعجب تماريف التلويب !!! وما أروع هذه المفارقة المباغثة التى خدفت لها قلبي واضطربت بها جرائحي .

لمت أطراف شجاعتي ، وأقدمت نحو مائدتها فـ تذكر لـهـ بحراة النادرة ، ووقفت أمامها ثم حاولت أن أنطق بكلمة فانتقد لسانى وجف حلقى واحتبست الكلمات فى فمى ، وراأت الأميرة ذلك - وكان رواد الفندق قد تطلعوا نحوى - وإبناقتى بإيماءة رفيقة ثم أشارت الى مقعد على مائدتها وأرتبمت ، ليه كمن يفضى السموظ . وكان لا بد أن أتكلم ففتح الله على بكلمات قصار .. قات لها فى رجفة : إبنى أيتها الأميرة شاب نصرى عربى الأصل ، وقد رأيتك لأول مرة فى هذا الفندق فتساءمت عنك ، فقيل لى صرة إنك أميرة إسبانية تحرسين على زى أجدادك العربى القديم ، وإينك وفدت الى مصر لمشاهدة آثارها والتمتع بشمسها وهوائها ، وقيل لى صرة أخرى إنك أميرة عربية من " بين البحرين " جئت الى مصر فى غير حاشية أو دعاية طلبا للراحة فى بلادنا .

قلت ذلك فى جهد ومشقة ، وتاولت الرجة كل قواى فلم أقو بعد هذه الكلمات على إتمام ما أريد ، فلزمت الصمت مطرقا ، وكأنها أشفتت على من هذه الحال ، فافتقر لغرها عن إبسامة مشرقة ثم قالت فى لهجة عربية فصيحة :

— وهل حيرك هذا الأمر فلم تهتد لأصلى ولم تعرف على التحقيق إن كنت إسبانية من أصل عربى أو عربية صميصة من " بين البحرين " ؟ ...
وكنت قد قويت على الكلام فقلت :

— كلا ، لم تكن هذه المسألة سبب حيرتى . وإكفى كنت أريد أن أقول بعد ذلك إبنى أراك هنا وحدك بغير رفيق أو أليس ، فميجبت لهذه الوحدة الموحشة وقلت فى نفسى حل ... هل ...

— قات فى نفسك حل تنباني الأميرة لأكون لها ذلك الرفيق الموانس أليس كذلك .
أدركنى رحمتها فتوات عنى إتمام ما كنت أريد أن أقوله فاطمأنت نفسى لحديثها وقلت :
— أجل أيتها الأميرة ، ذلك ما كنت أبعى أن أقول :

قلت هذه الكلمة فى راعنى - إلا أن أغرقت فى صمت وتأمل ، ثم رفعت إلى وجهها وظلت تحد جنى بنظراتها الفاحصة حتى أطرقت نجلا ، ولزمت الصمت كما لزمته ، برقينا على هذه الحال ما شاء الله أن ينبى - وكانها رأأت بعد هذا الصمت الغامض أن تذهب وحشة نفسى فواحت تسألنى عن آثار مصر وإقبال السائحين عليها ، وتشعب الحديث فى شئون شتى كلها فى نظرى نافهة لأنها لا تعينى ، ثم نهضت ثم مدت إلى يدها فى وقار ولطف وسلمت متصرفة الى جناحها فى الفندق ، ومضيت تشبعنى نظرات الجالسين ، وكننت فى هذه اللحظة شارد اللب أفكر فى شأنى مع هذه الاميرة التى أصبحت همى وشاغلى

(... أبريل سنة ...)

لك الله يا قلابي ، فقد طمعت في غير مطمع ، وتعلقت بالأوهام في حب هذه الأميرة
ها أنذا أراها اليوم قد تغير حالها ، لم تعد "وحيدة" كما كنت أراها ، لقد أختلف إلى
جناحها في الفندق عظماء المدينة فاصبحت تلقاهم في بشاشة وهشاشة .

بالأسس رأيتها على شاطئ البحر في سيارة أحد أبناء العظماء الوارثين ، ورأيتة إلى
جوارها يدل . وسمو مقام الجالسة إلى عينته .

لقد كانت رائعة في جلستها ، وحانت مني إليها التفاتة فإذا هي ترمقني بنظرة غامضة
أعريف كنهها .

إن هذه الأميرة تحيط بها أسرار لا قبل لي بكشف خفاياها ، لقد أصبحت سيرتها
في أفواه أهل المدينة ، وذاعت حول اسمها الإقاويل ... قالوا إنها غائبة لاهية ، وقالوا
لأنها تنصب شبا كها الذوى الغنى واليسار وتظفر منهم بالمال الوفير والهدايا الغالية ... قالوا
وقالوا وما أشقاني بما قالوا .

غدا سأذهب لزيارتها ، وغدا سأكاشفها بخبي ... أجل سأكاشفها بحبي أنا الفقير
المسكين ، وما كشف بذلك بعض أسرارها أو ليكن ما يكون .

(... أبريل سنة ...)

لقيتها اليوم واجبة ساهمة تفكر وتطيل الصمت والإطراق ، كأنها قد برمت بالدينيا
وزخرقتها ، وكأنها قد سئمت عيشها الوارف الغليل فراحت تفكر في الفرار من دنياها الصاخبة .

قلت لها :

— ما بالك اليوم كأن بك هما دفيننا .

فأجابت في صوت متهلج :

— بل هو ما تضيق بها نفسي .

قلت :

لقد جئت اليوم وعلى لساني كلمة جريئة كنت أريد أن أغامر بها فألقيها بين يديك .
لكني الآن أحجم عنها فإنت أريد أن ألقىها إلا في وقت تكون نفسك فيه منطلقة من هذا الأسار .

فأجابت مسرعة :-

— بل قل الآن ، فمن يدري ، لعلي أجد في كلمتك هذه عزاء لنفسي .

عندئذ انفرط لساني بهذه الكلمة التي كنت أخشاها فقات لها في جراءة وبساطة :

إنني أحببتك منذ رأيتك ، وكنت ولا أزال أعد هذا الشعور في نفسي ضربا من

الجنون ، فماذا تقولين في شأن هذا الفقير الذي يجرؤ على أن يصارحك الموى وهو يعرف
كيف وضعته الأقدار بين الناس ..

لم أقل هذه الكلمة حتى رأيتها تطرق بإطراقه حزينة ساهمة . وظلت على ذلك دقائق
كانت بطيئة الخطى ثقيلة الوطأة على قلمي . وبقيت أرقب جوابها كأني أرقب الحكم
بالإعدام في ساحة القضاء .

وبعد لأى قالت :

أمنحك الجواب الذى تبغى على شرط أن تنهض الآن إلى شاطئ البحر لعلى أخرج
بأواجه ضيق صدرى . وهناك تتحدث فىما تشاء .

وكأ على شاطئ البحر بعد قليل ، واختارت صخرة ناتئة فى منعطف الشاطئ وفى مكان
صحيح لا تدب إليه قدم . ثم وقفت تنظر إلى الأمواج المتدافعة مرة ، وتطيل التحديق
فى الأفق البعيد على صفحة الماء مرة أخرى .

وتحرنى هذا الموقف الرائع على الساحل ساعة الغروب ، وكانت الشمس ترسل شعاعها
اللهي وهى تتعلق بالأمواج قبل أن تغيب بين طياتها . وكان الشفق الدامى بعد الغروب
يتراءى بعيدا كأنه آثار معركة دامية انتصرت فيها طلوع الليل على طلوع النهار .
فى هذه اللحظات الرهيبة تكلمت الأميرة وعلى شفيتها الفاتنتين ابتسامة باهتة حزينة .

— تريد الآن جوابا حاسما ، أليس كذلك ؟

قلت فى لهفة :

— أجز .

فأجابت فى صوت خافت ونبرات مرعشة :

— ألا أقص عليك قصة صغيرة قبل هذا الجواب الذى تتلهف عليه .

قلت :

— كل كلمة تخرج من فمك حبيبة إلى نفسى .

فنظرت إلى الأمواج وراحت تقص القصة الصغيرة دون أن تلتفت إلى كأنها كانت
تحدث بها نفسها فى ساعة نجوى .

فقالت :

فى أرض فضاء بلاحدى ضواحي هذا الثغر كان بعض الأعراب يعضرون خيامهم حيث
يجدون المرعى لإبلهم وغنمهم . وبين هذه الخيام المنتشرة فى الرمال قامت خيمة صغيرة
أبلتها الرياح والأمطار . وفى هذه الخيمة أقام أعرابى فقير مع ابنته الوحيدة التى فقدت
أمها فى طفولتها ، وعاش الاثنان عيش الفاقة والشغل .

وكانت هذه الفتاة مشرفة فائنة الملامح ، فتطاع إليها أبناء الأعراب كل يبغها لنفسه
زرعة ، وكان أبوها يرضن بها عليهم لأنها كانت تعيه على العيش فتقوم على رعى غنماته ،
ثم تحمل لبنها لتبيعه فى بيوت الموسرين من سكان الضاحية .

وفي يوم من الأيام ، بجيئتها فتى تلوح عيه أنار النعمة والثراء بما يابس من ثياب زاهية . ونظرت إليه وكان في طريقه إلى بيت بعض أصدقائه هناك . وطال تردادته على طريقها فكان يرمقها وترمته دون أن يكلم أحدهما الآخر .

... ورمدت إحدى عينيها بخلست أمام خيمتها مطرفة تغطي عينيها بمنديلها . ومريها صاحبيا فوقف عندها وحياها ثم سألها عما أصاب عينيها ومألها هل ذهبت لملاجها في مستشفى المدينة الرمدي . وأجابته في ذلة وانكسار بأنها لا تعرف الطريق إلى هذا المستشفى ولا تملك أجرة الترام إليه . وتذرس الفتى في وجه الفتاة فراعها جمالها الفاتن ، وحلت من قلبه مكانا ساميا . وانصرف على أن يعود من زيارة صديقه ليستأذن أباحا في مصاحبته إلى طبيب من أصدقائه وليكلفها برعايته إلى أن تشفى ...

وأحسن الفتى إلى الأعرابية الفقيرة حتى تم شفاء عينيها وعاد وجهها إلى إشرافه وفتنته وكانت الفتاة قد أحببت الفتى حبا ملك عليها شباب قلبها . لكنها لم تجسر على مفاتيحه بالحب لشعورها بالمذلة والفقير بالنسبة إليه ... لقد كان الفتى أحد طلاب معهد الاسكندرية الديني ، وكان يرقل بين رفاقه فيما وهبه الله من عز وثراء وجاه .

ومضت أيام وأيام . وعلى حين فجأة اختفت خيمة هذه الفتاة من بين الخيام ، وغابت عن الحى مع أبيها فلم يعرف أحد من شأنها شيئا . أما سبب اختفائها مع أبيها فذلك لأن أمرا إسبانيا كان يسكن قصرا من قصور هذه الضاحية طلبا للمتعة والراحة ، فيجول بعض الأيام بين هذه الخيام فراعها جمال هذه الفتاة فتحدث إلى أبيها وعرض عليه أن يكون أحد حراس قصره وأن تكون ابنته إحدى خادمات القصر ، وقبل الرجل مسرورا ، ودخلت الفتاة القصر على استحياء وأصدر الأمير أمره إلى الوصيفات والجوارى أن يقمن بأعدادها في أجمل الثياب وأغلاها لتكون خادمتها الخاصة ...

وفي شهور فلائل تحولت الأعرابية الفقيرة الرثة إلى فتاة عصرية تتكلم اللغة الإسبانية وتلم بالفرنسية ، وأصبحت بفعل المال وسخره وحظوة الأمير غادة القصر وصاحبة الأمر والنهى فيه . وفي جملة وجيزة : أصابت من نعم الدنيا كل ما تمنناه فتاة ، ونالت كل شيء وفقدت في سبيل ذلك أنفس شيء !! ...

ثم مات أبوها ، واعتزم الأمير على الارتحال - وكان قد مل خدمتها وزهدت نفسه فيها ، فتركها وارتحل بعد أن أصدق عليها مالا وحليا وثيابا .

وفي طوال الأعرام التي قضتها في كنف الأمير لم تكن نسيبت فتاها الذي أحبته وتدلعت في دواه .

وخرجت إلى دنيا اللهو والآثام فأوحى إليها شيطانها أن تابس الثياب العربية الأنيقة الغالية ، وأن ترحم لنفسها أنها أميرة عربية وفدت إلى مصر وحيدة تجوب أرجاءها وتشهد آثارها - وتهاوت دلي جلسها عليه القوم وعظماؤ الرجال ، ونصبت شبا كها لاصطياد أموالهم وهداياهم .

وقضت في هذه الحال أعواما وأعواما ، ترتمل عن مصر الى عواجم أوروبا فتعزم فيها لنفسها ما زعمت في مصر ، ثم تعود في بعض فصول السنة زاعمة أن دعواء مصر يجتذبها في كل عام .

وعلمت في خلال ذلك بالبحث والنقصي أن حبيبها الأول قد أدبرت عنه دنياه بعد أن عاد من منفاد في مالطه فذهب رونق شبابه وغاضت ابتسامته واضطرب عيشه وصفرت يده واجتواه المجتمع . ثم التقت به على غير بعيد ... فأعاد بلقائه قديم الذكريات ، وأجتم في نفسها سعي الوجد والهام . لكنها كانت قد فقدت نفسها الأولى ، وكان هو قد فقد نفسه أيضا فلم يعد يصلح لها ولم تعد تصلح له . ولم يبق إلا أن تعود فتبحث عن مكان خيمتها الأولى لتقضي هناك بقية أيامها في ثياب رثة بعد أن عافت نفسها دنيا الأناام فلها تكفر عما اقترفت يداها . وكذلك لم يبق إلا أن يعود صاحبها من حيث أتى ليضرب في مناكب الأرض طالبا للرزق كالمدبج الحيران في البيداء أخطأه القمر ... بذلك أتيت "لأميرة العربية" قصتها ، وكنت كلما ذكرت واقعة من وقائعها أنتفض لول الذكرى الأثيمة . لكنها لم تكن تراني ... فقد كانت تتحدث ووجهها الى الأمواج ...

رباه !! تلك هي "ساجدة" أعرابية حى السيوف !! وكان الليل قد اف الشاطئ بضيائه فعدنا واجمين نشر صفحات الماضي ونطويها دون أن نتكلم .

أما أنا فقد عدت كما قالت أضرب في بجاج الأرض كالمدبج الحيران ...

وأما هي فقد ارتحلت من الفندق الكبير ثم اختفت بغاة كما اختفت مع أيها أول صبرة لم يعرف أحد من شأنها شيئا .

عبد الله حبيب
رئيس مكتب الصحافة
بوزارة الشؤون الاجتماعية

" لا يذكر الفساجير في العتلاء ، ولا الكذوب في الأعداء . ولا الخذول في الكرماء ، ولا الكفور بشيء من الخير . "

" ابن المقفع "